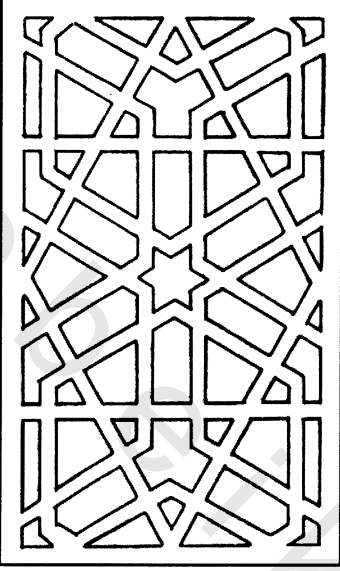




الزمرة الأولى

مكانة العلم في الإسلام

- منزلة المتعلم وجزأؤه
- من المهد إلى اللحد
- خفض الجناح للمتعلم
- إعلان إسلامي لحق التعليم
- طلب العلم فريضة
- العلم ميراث الأنبياء
- شمولية العلم
- العلم المفروض على الكفاية
- التشجيع على العلم
- تعليم القرآن
- ثناء العلم بتعليمه والعمل به
- أخلاقيات المعلم وواجباته
- أخلاقيات المتعلم وواجباته

obeikandi.com

من مكانة العلم في الإسلام أن الله عز وجل يأجر على تحصيل العلم كما يأجر على بذل الوسائل في تحصيله، والمألوف أن الإنسان ينال الأجر إذا فعل الأمر، أما إذا بدأ وشرع في أمور هي ليست من جنس الغاية التي يريد بها فإنه ليس له حق في تحصيل أجر على ذلك، ولكن الله عز وجل من إكرام عباده المجاهدين و المهاجرين والمتعلمين جعل هذه الأمور يؤجر الإنسان فيها على الغاية وعلى الوسائل سواء بسواء، مصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة" (١). فسلوك الطريق لطلب العلم مدعاة للأجر، وأي أجر هذا إنه تسهيل طريقه إلى الجنة.

وقد بين العلماء أن معنى هذا الحديث يحتمل أمرين: أحدهما إنه سلوك الطريق إلى العلم حقيقة، وهو مشي الأقدام إلى مجالس العلماء ومعاهد العلم ومراكزه، فهذه الخطوات التي يخطوها الإنسان ليحصل العلم ويكتسب المعرفة يؤجر عليها، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (٢). وهذا في الهجرة وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد: "ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار" (٣).

(١) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه .

(٢) سورة النساء / ١٠٠ .

(٣) رواه البخاري .

فسلوك الطرق وتحمل المصاعب وتجشم المشقة لتحصيل العلم هو أمر يستوجب الثواب بفضل الله وكرمه ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه خطوات طالب العلم بخطوات من يمشي إلى المسجد . والحديث يبين أن من يمشي إلى المسجد لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، ومحا عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة . هذا أحد الاحتمالين في معنى سلوك الطريق لتحصيل العلم .

والاحتمال الآخر أن المراد هو سلوك الطريق معنويا، أي كل ما يؤدي إلى تحصيل العلم وليس قاصرا على الخطوات التي يطؤها الإنسان متجها إلى مكان التعلم . ومثال هذا كل ما يؤدي إلى تثبيت العلم في الصدور ووجود الوعي في القلوب، ومن ذلك الحفظ والمدارسة والمذاكرة ومطالعة الكتب وكتابة العلم وتفهمه ، فهذه طرق معنوية لتحصيل العلم .

وإذا كان سلوك طرق العلم هو الشرط « من سلك طريقا يلتمس فيه علما » فما هو الجزاء والثواب ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : سهل الله له به طريقا إلى الجنة . ومعنى هذا التسهيل أن الله عز وجل يسهل له ما أراد ، فإذا ابتغى العلم أعانه الله عليه . ومصدق ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(١) .

وهذا أمر مشهود محسوس فكل من أراد أن يقرأ القرآن يجده ميسرا له ، وهذا التيسير من بركات هذا الذكر الحكيم .

وقد كان من شأن السلف الصالح أنهم قالوا : " هل من طالب علم فيعان عليه " . أي إن من شأن من يطلب العلم أن يعينه الله عليه فتسهيل حصوله وبلوغه ما أراد هو الجزاء والثواب والنتيجة التي يصل إليها الإنسان .

(١) سورة القمر / ١٧ .

وهناك معنى آخر للجزاء والثواب هو أن الله عز وجل يجعل تلك الوسائل وذلك السعي سببا لهدايته، فإذا صح قصده وخلص عمله فإن الله تعالى يكلل مسعاه بالنجاح ويجعله مهديا راشدا في أموره التي يبتغيها .

وهناك معنى ثالث وهو معنى حقيقي أنه تسهيل طريقه إلى الجنة ، ونحن نعلم بأن الوصول إلى الجنة ليس سهلا لأنه مسبوق بأهوال منها الصراط ، ومنها ما قبله، ومنها ما بعده، فإذا أراد الله بطالب العلم خيرا سهل طريقه إلى الجنة بأن ينجيه من تلك الأهوال ويهون عليه الوصول إلى دار النعيم الخالد .

قد يظن بعض الناس أن التعلم هو مهمة الشباب وحدث السن، ولكننا نجد في تاريخنا الإسلامي وفي القرآن الكريم نماذج تبين أن التعلم ليس هو من شأن الشباب وحدهم وإنما هو تعلم الصغار والكبار :

- أما من تاريخنا الإسلامي فإنه فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن المعلوم أن أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تعلموا في كبر سنهم ولم يعترضهم الضعف المعهود للكهول والشيوخ، فقد كانوا في الغاية من النشاط وفي القوة من الحفظ. والسبب أنه كان لهم من حرصهم ودأبهم ما يعوض ما يفقده الإنسان بعد تقدم العمر به . ومن الكلمات المأثورة المعروفة أن الإنسان يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، فالعلم هو رفيق الإنسان في عمره . هذا من التاريخ .

- وأما من القرآن الكريم فإنه قصة موسى والخضر التي نقرأها في سورة الكهف ، ولو أنني أردت أن أسردها بطولها في الحديث كما ورد في صحيح البخاري ومسلم لامتد بنا المقام، ولكنني أوجز بهذه الإشارة إليها :

وقف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام خطيباً في بني إسرائيل فعلمهم مما علمه الله في دينهم ، فلما فرغ من خطبته سأله أحد الحاضرين : هل تعلم

رجلا أعلم منك يا نبي الله؟ فقال موسى عليه الصلاة والسلام : لا أعلم .
كان موسى في هذا صادقا بحسب ما يعتقد لأنه النبي إلى تلك الأمة والله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته، ولكن الله عز وجل كما قال في كتابه :
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) . والله يصطفي من رسله لحكم لا يعرفها إلا هو فقال الله عز وجل لنبيه موسى : بلى عبدي خضر أعلم منك كما جاء في الحديث ، فما كان من موسى إلا أن يسعى لكي يصل إلى هذا الرجل الذي جعله الله أعلم منه .

وقرأنا في سورة الكهف تفاصيل هذه القصة ، وهي أن موسى اصطحب فتاه .. واصطحب معه حوتا صغيرا (سمكة) ليكون فقدان هذا الحوت أمانة على وصوله إلى مكان ذلك الرجل ، وذهب موسى وهو قد جاوز الأربعين . وهنا محل الشاهد لأن الله عز وجل لا يرسل رسولا إلا بعد أن يبلغ الأربعين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لنتصور رجلا كريما في الأربعين من عمره يتحمل مشاق الرحلة ويأخذ معه الزاد ، ويمضي هو وغلამه على شاطئ البحر يتحرى مكان ذلك الرجل الأعلم منه وينسى طعامه وينسى زاده وحاجته البدنية إلى أن يذكره غلامه فيبحث عن الحوت ، فإذا به قد فقد فيعلم أنه قد قارب المكان حتى يلتقي بعبد الله الخضر ويكون له معه شأن فهو يخرق السفينة، تلك السفينة الصالحة التي لا عيب فيها، ثم يقتل الغلام، ذلك الغلام الساذج الذي لم يبلغ الحلم ولم يجر عليه القلم، ثم يبني جدارا لقوم لم يضيفوه ولم يكرموه، ويستغرب موسى تلك الأمور كثيرا وهو على حق في استغرابه، لأن موسى نبي الله مأمور بالبناء على ظواهر الأمور، كما قيل في بعض الآثار : " نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " .

فموسى كان على حق وكان على مقدار من العلم يكفيه ويجزيه ولكنه حينما صاحب عبد الله الخضر تعلم أمورا أخرى ، أضاف إلى ذلك بناء الأحكام على بواطن الأمور وحقائق الأشياء إذا ظهرت للإنسان، وحقائق الأشياء تظهر لمن أوتي قوة عقلية إدراكية تطلعه على الأسرار الكامنة لها، وقد تكون هذه الإدراكات بفراسة للإنسان، أو بثاقب نظر، أو بشدة إمعان وتأمل، وقد تكون بإلهام يقذفه الله عز وجل في قلبه ، فإذا ظهر له حقيقة أمر وبنى اجتهاده وحكمه وعمله على ذلك الأمر فإنه أيضا مصيب، وهذا ما فعله الخضر فإنه خرق السفينة الصالحة لتنجو من غضب الملك الظالم الذي كان لا يرى سفينة صالحة إلا يأخذها، وقتل الغلام لكي لا يورث أبويه من إثم أوزاره، وبنى الجدار ليكون حفاظا على الكثر المخبوء لسلالة الصالحين، وتعلم موسى من عبد الله الخضر وأدرك أن هناك أمرين وطريقتين : بناء الأمور على الظواهر وبنائها على بواطن الأمور وحقائق الأشياء إذا ظهرت بطريق يقيني ، وهذا ما فعله الخضر فإنه قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ ^(١)

كثير ممن حرموا من فرصة التعليم في الصغر يصعب عليهم أن يجلسوا على مقاعد الدراسة وقد بلغوا من الكبر عتيا، ويرون في ذلك مشقة، والحقيقة أنها مشقة نفسية، وحديثنا الآن مع هؤلاء لتحويل هذه المشقة إلى راحة نفسية .

إن ترك الإنسان تعلم ما يحتاج إليه دائما إنما هو تعريض لنفسه للذل الدائم، فهذا الإنسان الذي يتقلب في أنحاء الحياة ويقف في مواقف مختلفة تتطلب منه أن يكون كاتباً وأن يكون عارفاً بكثير من الأمور فإذا به لا تسعفه معطياته على أداء ذلك الأمر يشعر بالذل الدائم، ومن هنا قال الأولون : " من لم يتحمل ذل التعلم ساعة تحمل ذل الجهل إلى قيام الساعة " وتحمل الذل لا يجوز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه " ^(١) ، ولذا قد يقول قائل : إن تلك الجلسة التي يجلسها الإنسان الكبير بين يدي معلم قد يصغره سنا فيها ذل وفيه خفض جناح، والجواب أن الخفض للجناح هنا مأمور به، وهو مأجور عليه، ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم " ^(٢) فالمؤمن لا يتملق، ولا يتزلف ولا يخفض جناحه إلا لوالديه، ولمن يتعلم منه، لأن العلم لا يؤخذ إلا بلين الجانب ولذلك يقول الشاعر :

(١) أخرجه الترمذي وصححه وأخرجه ابن ماجه .

(٢) رواه ابن عدي بأسانيد وإن كانت ضعيفة لكنها تتقوى .

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن عصيت طبيبه واصبر لجهلك إن عصيت معلما

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث في فضل التعلم والحث عليه ما يستغرب الإنسان معه كيف أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحث على هذا الجانب؟ ولم أكثر عليه؟ ولا شك أن وراء ذلك حكمة جليلة فرسول الله بعث في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب وكان لا بد أن ينشر فيهم روح التعلم وأن يحثهم على تحمل المشاق وعلى استدراك ما فاتهم في الصبا والشباب .

لقد كانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الترغيب في العلم والتعلم مسهبة وواسعة وجليلة إلى درجة قد يظن الإنسان أنها من غرائب الأحاديث مع أنها من الأحاديث الثابتة، ونحن نعلم أنه إذا تضمن الحديث كثيرا من الترغيب على قليل من العمل فإن ذلك غالبا ما يكون أمارا على ضعفه وعلى غرابته، ولكن ليس العلم قليلا من العمل، العلم جليل من العمل ولذلك كان حض رسول الله صلى الله عليه وسلم جليلا متناسبا معه .

لنستمع إلى هذين الحديثين وهما حديثان صحيحان :

الأول منهما رواه أبو الدرداء مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من غدا يريد العلم يتعلمه الله فتح الله له بابا إلى الجنة وفرشت له الملائكة أكنافها وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحر (أي أثنت عليه) وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة

لا تسد ، وهو نجم طمس ، موت قبيلة أيسر من موت عالم " (١) .
وقد اشتمل هذا الحديث على كثير من الثناء وكثير من الثواب وكثير
من المكانة لمن يغدو ويروح في طلب العلم .

والحديث الآخر عن أبي الردين قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " ما من قوم يجتمعون على كتاب الله يتعاطونه بينهم إلا كانوا
أضيافا لله ، وإلا حفتهم الملائكة حتى يقوموا أو يخوضوا في حديث غيره ،
وما من عالم يخرج في طلب علم مخافة أن يموت أو انتساخه مخافة أن يدرس
إلا كان الغادي الرائح في سبيل الله ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " (٢)
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزاه عن أمته خيرا فيما جمع لها
من جوامع الكلم وما بين من فضائل العلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي وحسنه المنذري .

(٢) رواه الطبراني ورمز له المنذري أيضا بالحسن .

إعلان إسلامي لحق التعليم

٤

لقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع أول دعوة لحقوق الإنسان ، وبالإضافة لذلك هناك إعلان خاص بحق العلم والثقافة كان فيه فضل السبق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا على جميع الإعلانات الثقافية التي سمعنا بعضها ولا نزال نسمع هنا وهناك .

لقد كان أول إعلان ثقافي مع ظهور الإسلام أرسى به النبي صلى الله عليه وسلم مبادئ التكافل في الثقافة والتعليم ، فالتكافل ليس اجتماعيا أو اقتصاديا فقط وإنما هو تكافل في كل ما فيه نفع للناس .

لنستمع إلى هذا الحديث الصحيح، يقول عبد الرحمن بن أبزى أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فأتى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال : " ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن أقوام جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرهم وينهونهم ، ولتعلمن أقوام من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة " (١) .

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد رواه ثقات كما قال المنذري .

أي إعلان ثقافي أروع من هذا الذي يجعل تقصير العالم في تعليم الجاهل جنائية وجريمة تستحق العقاب؟! وأي عقاب؟ إنه عقاب عاجل ليس العقاب الأخروي فحسب، ولكن عقاب الدنيا وعقاب السلطة .

هذا هو النداء فلنستمع ماذا كان صداه بين الصحابة وبين الذين عنوا بهذا النداء ، وقبل أن نستمع إلى صدى هذا النداء فإن من المعهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوعظ والإصلاح أنه كان لا يواجه إنسانا بما يكرهه ، فإذا بلغه عن إنسان معين أمر ارتكبه أو تقصير جناه فإنه يقول : ما بال أقوام بلغني عنهم كذا وكذا، وهكذا فعل هنا .

حين رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النداء على منبره وقال : " ما بال أقوام " تهاشم الناس وبدؤوا يتساءلون: من ترونه عناهم بقوله هذا، وبعد التذاكر بينهم قال قائلهم : إنهم الأشعريون، هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل الماء والأعراب، ولما انتشر هذا الظن بأنهم هم الأشعريون ضاقت نفوسهم بهذا فوردوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متظلمين. فقالوا : يا رسول الله ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر كل كلمة قالها في ذلك النداء ويؤكد تلك الصيحة التي أطلقها بين المسلمين فقد قال لهؤلاء الأشعريين : ليعلمن أقوام جيرانهم وليفقهنهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا . فقال هؤلاء الأشعريون يا رسول الله أنعظ غيرنا؟ تساءل هؤلاء القوم هل يتقدم الإنسان بموعظة غيره أم أن الاتعاض والسؤال هو واجب الجاهل وحده ، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله عليهم وأعادوا قولهم : أنعظ غيرنا فقال ذلك أيضا .

وبعد المحاورة كانت النتيجة أن قال هؤلاء الأشعريون لرسول الله عليه السلام : يا رسول الله أمهلنا سنة أي أننا نتعهد بأداء ما طلبته منا ولكننا نريد مهلة وهذه المهلة هي سنة إنها سنة تستوعب دورة يقوم هؤلاء الأشعريون بتعليم جيرانهم، هؤلاء الجيران الذين وصفهم الراوي بأنهم جفاة ومن أهل المياه والأعراب أي ممن حرّموا فرص الثقافة فليسوا في الأسواق وليسوا في الحاضرة، وإنما هم في البرية ولذلك يحتاجون جهدا كبيرا يتطلب سنة من الزمان فأمهلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(١) .

أي نداء أعظم من هذا النداء ؟ إنه تكافل ثقافي لا يكلف مالا ولا سلطة ضبط ولا قانونا يسن أو عقوبات توضع، وإنما هو نذير وتهديد وتخويف ما لبث هؤلاء الأشعريون العلماء الفقهاء أن بادروا مقبلين غير محتاجين إلى شدة لتنفيذ رسول الله وعيده فيهم .

وهؤلاء الأشعريون لهم أمثال بين المسلمين ولكن رواة الأحاديث يروون نبذا وأمثلة، قال رجل يوما للزهري بعد ما سأله فوجد منه بعض الثاقل، وحينما يصدر ذلك من الزهري إنما يصدر من شدة ما يناط هؤلاء الناس من مهام فالزهري رجل فرغ نفسه للعلم والتعليم ولكن طلبة العلم أحيانا يلحون

(١) سورة المائدة / ٧٨ ، ٧٩ .

في السؤال فيبدو أن ذلك الرجل قد ألحف في السؤال على الزهري فوجد من الزهري بطئا، ومع أنه هو السبب قال للزهري إن الله لم يأخذ الميثاق على الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا ثم قرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾^(١) إن هذا الرجل المتعلم إنما هو في الحقيقة معلم، هكذا كانت الثورات الثقافية وهكذا كانت الإعلانات، ليست شعارات ترفع ولكنها هم تتحرك وجهود تبذل يسهم فيها العالم والمتعلم، فالعالم يذل ما عنده، والمتعلم يستفرغ جهده ويقول قائل الناس:

ومن منح الجاهل علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم
وبهذا يتبين أن الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم هم أصحاب السبق لكل فضيلة .

(١) سورة آل عمران / ١٨٧ .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي روي بطرق كثيرة وإن كان فيها بعض الضعف فاعتبر حديثا حسنا : طلب العلم فريضة على كل مسلم، هكذا ورد الحديث وهذا الحديث كما قلت حسنه المحدثون ولم يرد فيه كلمة " و مسلمة "، ولكن العلماء في شروح هذا الحديث فسروا هذا الحديث فأضافوا من كلامهم على سبيل الشرح : أي "ومسلمة" . وهذا هو الشأن في خطاب الشارع الحكيم، يخاطب من هم في مجال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الذكور، فكل ما يرد من خطاب موجه إلى المسلمين فهو أيضا موجه إلى المسلمات ما لم يرد ما يجعله خاصا بالذكور. وكل حديث يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم فمعنى ذلك أنه يشمل المسلمة أيضا، ومن هنا استساغ شراح الحديث أن يقولوا عقب هذا الحديث بعد أن قال رسول الله عليه الصلاة والسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم قالوا ومسلمة .

هذا هو الحديث فما هو العلم الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فريضة، ثم ما نوع هذه الفريضة ؟ من الواضح أن العلوم كثيرة منها علوم الأديان ومنها علوم أخرى يحتاجها الإنسان في حياته وهذه العلوم الدنيوية هي من قبيل الوسائل، بعضها وسائل لعلوم الأديان ، وبعضها

وسائل لإقامة حياة الإنسان ، والإمام الغزالي رحمه الله أشار إلى أن الاختلاف في تحديد العلم المراد في هذا الحديث زاد عن عشرين رأيا للعلماء.

والسبب في هذا أن كل صاحب علم وكل فريق يمهر في علم من العلوم ويعرف قيمته ويدرك خطورته يتجه ذهنه إلى أن يقول بأن هذا العلم تعلمه فريضة، فعلماء الكلام والتوحيد قالوا بأن تعلم ذلك العلم فريضة، وعلماء الفقه قالوا ذلك، ومثلهم علماء التفسير أو الحديث وآخرون من هنا وهناك، ولكن الإمام الغزالي فصل في هذا الأمر بين من خلال أصل وضعه في هذا المجال أن المراد من (العلم المفترض على المسلم تعلمه) هو العلم الذي يتعرف به العبادات والحلال والحرام وما يحل وما يحرم من المعاملات وما يعرف به ما يجب عليه في وقته، أي إن هذا العلم يختلف بحسب ما يتحدد من الحال، ويختلف بحسب حال الشخص .

والحقيقة أن الأصل الذي وضعه الغزالي أصل متين يحقق الهدف المظنون من نص الحديث الشريف الذي جعل العلم فرضا على الإنسان، ولا ريب أن درجة الفرض، ثقيلة والفرض مخالفته حرام، والفروض التي فرضها الله على المسلمين - بصفتها فرائض أعيان تتناول كل إنسان بعينه وذاته - مبينة في حديث: " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا " (١) ومفاد هذا أن كل مسلم عليه أن يتعلم من هذه الفرائض ما يستطيع به أن يؤديها على الوجه الصحيح، فيجب على الإنسان أن يتعلم من الصلاة ما يقيم به صلاته، ومن الزكاة ما يؤدي واجب المال

(١) رواه البخاري ومسلم .

الذي يملكه، ومن الصوم ما يؤدي به هذه العبادة، ومن الحج ما يقع به حجه صحيحا مبرورا ، ومن العقيدة ما يتره به الله عز وجل ويعبده كما أمر ، ومن العلوم الأخرى كل ما هو وسيلة لأداء هذه الواجبات الدينية، أو لبقاء الإنسان نفسه باعتباره مخاطبا بهذه الواجبات .

ثم يضيف الإمام الغزالي إلى هذا أن الإنسان عليه أن يتعلم ما يحل ويحرم ولكن الحلال والحرام كثير فما الذي لا يطالب به في ساعته وفي وقته؟ إنه ينظر ما يلابسه من الأمور ويتصل به من الشؤون فيوجب عليه تعلمه، وأحيانا يكون الإنسان بعيدا عن أمر ما ولكنه بصدد الوقوع فيه فمثل ذلك أيضا يندرج فيما يفترض عليه علمه، فإذا أتقن الإنسان هذه الأمور هل انتهت فريضة الله عليه وهل هذا هو العلم الذي افترض على المسلم فقط؟ إننا نعود إلى الضابط والأصل الذي رسمه الإمام الغزالي وهو إمام عميق النظر له حظ كبير في الفقه وأصوله والتربية وعلم النفس والعلوم الأخرى العقلية واللغوية، هذا الإمام يقول: إن هذه الفريضة بحسب ما يتحدد من الحال ويختلف بحسب حال الشخص ، ولنطبق هذا الأصل نتصور حال الإنسان في زمان ومكان انتشرت فيهما القراءة والكتابة وأصبح تعلمهما مفترضا على كل إنسان فإذا مر في طريق فإنه يكتب له : هاهنا خطر، وإذا وقف في مكان يكتب له : ها هنا ممنوع، ويخاطب بخطابات ويتعرض لأمر لا ينجيه من التهلكة فيها إلا أن يتقن الكتابة والقراءة ؟ أليس من الواضح أن ينطبق عليه أن هذا أمر مفروض عليه بحسب حاله وحسب شخصه، لأن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لمصلحة الناس، ومصلحة الناس ظاهرة بارزة في إدراك هذه الفرائض العينية وقد يلحق بها بعض الأمور بحسب ما يتجدد من الحال وبحسب حال الأشخاص .

لقد كانت هذه الأمة أمية، وكان التعلم والتعليم بالسماع والمشاهدة ثم تغيرت الأحوال وأصبح الإنسان الذي لا يجيد القراءة والكتابة ذليلاً بين الناس، مهضوم الحقوق تضيع عليه الفرص، فإذا أصبح من الفرض عليه أن يتعلم من ذلك ما يقيم به أوده وما يحصل به عيشه، وكثير من الحرف والمهن التي يكتسب بها الإنسان عيشه لا يستطيع أن يتقنها إلا إذا عرف القراءة والكتابة، فبارك الله في ذلك الإمام العميق النظر الذي وسع هذا المعنى ووضع له منارا هتدي به ، وهو أن الفريضة تتعلق بكل ما يتجدد به الحال وكل ما يحتاجه الشخص بحسب ما تقتضيه الأمور .

إن من يغادر هذه الحياة الدنيا إلى الآخرة يدع ميراثا يرثه من بعده، فهل ينطبق هذا على الأنبياء؟ يفصل في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة"^(١). هذا الحديث الشريف الصحيح يبين لنا أن من نعمة الله عز وجل على عباده أنه بعد أن جعل هؤلاء الرسل رحمة للناس في حياتهم: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٢).. جعل ما يخلفونه بعد وفاتهم هو أيضا للناس جميعا فإن خلفوا مالا من متاع هذه الدنيا فإنه يكون صدقة.

ولكن كيف يموت هؤلاء الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ولا يدعون للناس ميراثا يقتسمونه؟! لنستمع إلى هذا الخبر الذي فيه تشويق للتعلم، وفيه انتهاز للفرص من خلال صيحة يطلقها أبو هريرة رضي الله عنه في سوق من أسواق المدينة يخاطب الناس بما يفهمون ويأتيهم من حيث يهتمون ويستغل هذه النقطة التي أشرت إليها وهي أن العلم ميراث الأنبياء وإذا كانت هذه الحقيقة قد عرفت في زمن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءت فاطمة رضي الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١ / ٩ والترمذي والنسائي ولفظ البخاري في صحيحه (٤ / ١٩٤): "لا نورث ما تركناه فهو صدقة".

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٧.

عنها تطلب ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أرض في فدك فقال لها أبو بكر برفق وتؤدة وحب واحترام قال لها : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة"، وفي الحديث الآخر : " إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (١).

يبدو أن هذه الحقيقة قد خفيت بعد زمن ولا سيما على أهل الدنيا وأهل الأسواق فإذا بأبي هريرة يجدد هذه الحقيقة، حين مر بسوق من أسواق المدينة فوقف في السوق وقال : " يا أهل السوق ما أعجزكم" قالوا : " وما ذاك يا أبا هريرة " قال : " ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم ها هنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم " قال أهل السوق : " وأين هو يا أبا هريرة " قال أبو هريرة : " إنه في المسجد " (٢) . وقعت هذه المقالة في أسماع هؤلاء الناس موقعها وتيقنوا أن في المسجد ميراثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد يكون بعض الأموال وقد يكون بعض المتاع، فأروا أن يذهبوا وأن يكون لهم نصيب من ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم من المسلمين والمسلمون هم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو العلماء منهم ، خرج أهل السوق سراعا ووقف أبو هريرة في مكانه حتى يرجعوا لقد أدرك أبو هريرة بثاقب نظره أن هؤلاء سيرجعون فإذا بهم يرجعون فقال : " ما لكم " قالوا : " يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر شيئا يقسم " فقال لهم أبو هريرة : " وما رأيتم في المسجد أحدا " قالوا : " بلى رأينا قوما يصلون وقوما يقرؤون القرآن وقوما يتذكرون الحلال والحرام " فقال لهم أبو هريرة : " ويحكم فذلك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم " .

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد في مسنده وأبو داود ٢ / ٢٨٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط بإسناد حسن .

لقد أصاب الحكمة أبو هريرة، فلو أنه قال لأهل السوق أن في المسجد علما يقتسم، وعظلة تتدارس وحلالا وحراما يتعلم، لما تحركت لهم ساكنة ولكنه أطلقها فيهم صحيحة ليجعل لهم حظا من العلم ويجعل لهم في الدين حظا فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾^(١) . فليس للإنسان أن يلهث وراء الكسب وينسى واجب التعلم والتعليم بل عليه أن يجعل من نفسه حظا لهذا التعلم .

فإذا استطاع أن يقتطع من وقته فيها، وإذا استطاع أن يشترك مع صاحب له فليتناوب معه تعلم العلم ، كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصنع حينما كان يسكن في العالية، وهي منطقة خارج المدينة المنورة ، فكان يتفق هو وجار له ينزل كل واحد منهم يوما إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتعلم ما يقسمه الله تعالى من العلم ثم يرجع إلى صاحبه فيشترك معه ، وهذا تطبيق لقول الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) .

وأختم بهذا الخبر القصير : كان هناك أخوان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما يحترف والآخر يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعلم منه فشكا المحترف أخاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول : "علك به ترزق"^(٣) .

(١) سورة القصص / ٧٧ .

(٢) سورة التوبة / ١٢٢ .

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث صحيح .

إن العلوم التي افترض الله عز وجل أن تكون باقية مستمرة في الأمة الإسلامية هي شتى أنواع العلوم النافعة وقد جعل لها مستندا من الدين نفسه من الحلال والحرام، من الفرض والواجب الذي أوجبه الله عز وجل كما أوجب على الناس عبادته، فقد أوجب عليهم أن يتعلموا ويعلموا وأن تستمر هذه العلوم بين ظهرانيهم .

و قد يظن الإنسان أنها منحصرة في علوم الشريعة وإذا امتد بها الأمر قد تصل إلى العلوم العربية التي هي في الحقيقة وسائل وأسباب لفهم الشريعة ولكن الذي توصل إليه العلماء و قبل قرون طويلة أن هذه الفرضية فرضية نشر العلوم واستمرارها وبقائها في الأمة ليست مقتصرة على الشريعة أو العلوم العربية التي هي النوسائل لها، وإنما هي شاملة لجميع أنواع العلوم سواء كانت علوما يحتاجها الإنسان في حياته أو علوما تطبيقية أو علوما فكرية، وبكلمة موجزة إنها شتى أنواع العلوم النافعة .

هذه الفكرة قد لا تتقرر في الأذهان إلا إذا رجعنا إلى الماضي قليلا ورأينا نظرة لاحت لعدد من العلماء في عصور ازدهرت فيها علوم الشريعة وأقبل الناس عليها إقبالا شديدا بحافز الرغبة في الدين والطمع في الأجر والثواب

وبجوافز أخرى دنيوية ، ذلك أن تلك العلوم كان لها الدور وكانت لها الصولة وكان لها التشجيع الرسمي وقد أرصدت لها الأموال ووجدت لها الجهات المختصة وهناك مدارس وهناك مؤسسات يغدق عليها من الحكام ومن أموال أهل الخير المحسنين في صورة أوقاف، هذه العلوم الشرعية انتشرت وأصبح الإقبال عليها شديدا إلى درجة خشي معها بعض المصلحين أن يقتصر الناس عليها ويدعوا غيرها من العلوم .

و لنستمع إلى بعض ما يقوله علماء الحسبة^(١)، في تلك القرون الفاضلة فقد أشفقوا على غياب أو ضالة واضمحلال بعض العلوم الدنيوية ورأوا أن الناس يقفون ويقتصرون على علوم الشريعة، هل مال هؤلاء لاختصاصاتهم وفرحوا بذلك دون عمق نظر؟ لا بالرغم من أنهم من علماء الشريعة ومن المشتغلين فيها ، إلا أنهم نادوا بصوت عال ودعوا الناس إلى أن لا تخلو الساحة من تلك العلوم والاختصاصات الأخرى وهم أخذوا ذلك الجانب الدنيوي الذي يحفز الناس آنئذ على الاشتغال في العلوم الشرعية إذا كان بعض الناس يشغل بها رغبة في رضا الله عز وجل فقد كان بعض الناس يهتم بها لأن لها موارد، ولأن لها تصرفات دنيوية كالقضاء والإفتاء والتدريس وكل الوظائف البارزة في ذلك الحين، ولكن العلوم الأخرى كانت من قليل المهن والحرف .

ولذلك نادى هؤلاء العلماء كالسبكي وابن الإخوة وغيرهم ممن كتبوا في علم الحسبة الذي هو مفخرة في التاريخ الإسلامي لأنه يشخص الداء

(١) الحسبة معناها الإصلاح والنقض والتقويم حسبة لوجه الله عز وجل وقد وجدت مهمة الحسبة ووجدت لها كتبها الخاصة . وعلم الحسبة مزيج من علوم الشريعة ومن علم الاجتماع والاقتصاد وشتى أنواع الفنون والخبرات .

في كل عصر وفي كل مكان ويصف له العلاج، فإذا بهم يقولون للناس إن العلوم كافة إنما هي فريضة فإذا حصل الميل إلى العلوم الشرعية فلا ينبغي أن تقفر الساحة من العلوم الأخرى وبذلك أوجدوا ذلك التوازن الذي يجب أن يكون في الأمة الإسلامية، فالعلوم الشرعية والتعمق فيها، والعلوم العربية والتخصص فيها، والعلوم الدنيوية الأخرى كلها على قدر سواء، لأن الأمة محتاجة إليها، فكما تحتاج في أديانها تحتاج في أبدانها، وكما تحتاج أن تعرف كيف تصلي تحتاج أن تحدد القبلة، وتعرف ما يتصل بذلك من المواقيت وعلم الحساب، ومن علم الطب ومن غير ذلك من العلوم .

قد نستغرب نحن في هذه الأيام تلك النظرة ونقول كان على هؤلاء العلماء أن يتركوا جيادهم متسابقة إلى خدمة العلوم الشرعية ولكنهم وجدوا من الواجب أن يمسكوا عنصر التوازن وينبها وينوهوا إليه، ولكن هل هذا التوازن موجود الآن إننا نلاحظ أنه في هذه الأيام قد انعكست القضية، لأن تلك العلوم والاختصاصات صارت لها حوافزها المادية الجزلة، وأصبحت العلوم الشرعية ليس لها إلا حافز ضئيل، فلو كان هؤلاء العلماء علماء الحسبة في زمننا لغيروا لون الصيحة التي أطلقوها ولدعوا الناس إلى أن يوجد في هذه الأمة كفايتها من علماء الدين، ومن الفقهاء الذين يبينون الحلال والحرام، ومن علماء التفسير والحديث وشتى العلوم الأخرى، حتى يتحقق ذلك التوازن الذي هو قوام الحياة، فالحياة لا تتم إلا بغذاء الفكر وغذاء العقل إلى جانب غذاء الجسم، فكل هذه الأمور على حد سواء، والإمام الشافعي ذلك الأمام الفقيه المجتهد كان يوصي أي إنسان إذا أراد أن يقطن بلدة يقول له : لا تسكن بلدا ليس فقيه وطبيب، هذا هو التوازن الذي ينبغي أن يوجد في الأمة الإسلامية من منطلق أن هذه العلوم كلها فريضة على الأمة بأسرها ويجب أن تستمر وأن تتداول هذه الأمانة حتى يحملها السابق إلى اللاحق .

رأينا فيما مضى من أحاديث كيف أن للعلم مكانته للرفيعة في الإسلام إلى درجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تعلم العلم بالفرضية، وفي الحديث الشريف : طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولكن أي نوع من أنواع الفريضة ذلك الفرض ؟

إن الفرض في الإسلام إما أن يكون موجهًا إلى كل شخص بعينه وذاته وهذا ما يدعوه علماء الفقه والأصول فرض العين ، أي إنه موجه إلى الأشخاص بأعيانهم فلا يجوز أن يقوم إنسان فيه بدلا من إنسان، وهناك من الفروض ما يعتبر فرضا على المجموعة، أي على الكفاية، فإذا وجد في الأمة الإسلامية من نهض بذلك الأمر وأدى المهمة فإنه يكون قد قام بالفرض، ومثل هذه الفرائض يكون الأثر فيها والمردود على الجماعة لا على فرد بعينه أي إنه لا تصلح الأمة ولا تتحقق لها مآرب الحياة السعيدة إلا إذا وجد ذلك الأمر، من أي شخص وجد ، وبأي وسيلة حصل ، فهو أمر يجب أن يتحقق فإذا قام به بعض الأمة فإنه يسقط الإثم وتسقط التبعة عن البقية .

هذه الفرائض الكفائية هي في الحقيقة شيء تفرد به الإسلام، وإليها ترجع كل ما تحقق للحضارة الإسلامية من نهضة ومن تفوق وبروز، والحضارة الإسلامية ترعرعت في ظل هذا المبدأ، فإن فرض الكفاية هو وراء

الازدهار العلمي وجميع مظاهر الرقي المختلفة التي اتسمت بها هذه الأمة الإسلامية .

وفي هذه الأيام جمعيات خيرية ومبرات ويتداعى الناس لتكوين المناشط التي يؤدون بها خيرا للأمة ، ما هو هذا الخير؟ وما هو هذا الحافز والدافع عليه ؟ إنه لا شك فرض الكفاية فهذا الخير العميم لا يخص إنسانا بذاته ولا يتناول فردا بعينه وإنما يعود مردوده على الجماعة من حيث هي جماعة، العلم كذلك كما يكون فرضا على الأعيان وعلى الأشخاص بذواتهم يكون نوع منه فرضا على الجماعة بأسرها، وينبغي أن يوجد في الأمة أنواع من العلوم والمعارف باقية مزدهرة متحركة يتلقاها الآخر عن الأول، وهذا التلقي لا يحصل بأن يوجد في الإنسان من حيث هو معرفة ومملكة إنما يتحقق بأن يوجد في الأمة الإسلامية قابلية الاستمرار والبقاء والخلود لهذه العلوم .

هذا هو فرض الكفاية وهو في الحقيقة مدعاة للأجر وسبب من أسباب المثوبة وهي مثوبة مستمرة لأنه ينتظمه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " فالعلم المنتفع به لا يتحقق إلا إذا أعطى الإنسان من نفسه جهدا غير الجهد الذي يحتاجه شخصا، هذا الجهد هو تحفظ العلم وتبليغه وتعليمه ونشره .

هذه العلوم التي تفرض على الأمة الإسلامية فرضا كفائيا ماذا يكون للإنسان لو قام بها ؟ وماذا يترتب على الأمة إن قصرت في حقها ؟ لقد كان الأمر في غاية العدالة فإذا قام بها الإنسان حظي بالأجر، والحقيقة أنه ينفرد بالأجر فتلك الفئة التي تؤدي للأمة مهمة تحتاجها جميعها، هذه الفئة التي انبرت في هذا الأمر هي التي ينحصر فيها الأجر، لأنها قامت بأمر ليس

مطلوباً منها بذاتها وعينها وإنما هو مطلوب من الأمة الإسلامية ، فتصدت لهذه المهمة وتطوعت بالمبادرة لتحقيقها .

هذا من حيث الجانب الإيجابي، أما الجانب السلبي فإذا لم توجد هذه الفرائض الكفائية، ومنها تعلم العلوم بأسرها كما أشرت وكما سأفصل فيما بعد فإن الذي يترتب أن يأثم الجميع، يجب السخط وتجب العقوبة على كل الأمة الإسلامية بأسرها ، ذلك أن زوال الإثم رهين بتحقيق الأمر ، فما لم يتحقق الأمر يشمل الإثم والتبعة الجميع، لا يقال بأن فلانا وفلانا وتلك الطائفة هي التي يزول بها الإثم لو فعلت فإذا قصرت ينحصر الإثم فيها، لا لأن فعلها وتركها ليس لأجلها وحدها وإنما هو لأجل الأمة ولمصلحتها، وهذا عين العدالة وهو الجزاء الصحيح الذي أوجده الله عز وجل وجعله حافزاً، قد يكون بالإيجاب والترغيب، وقد يكون بالإرهاب والتخويف، ومن هنا ازدهرت الحضارة الإسلامية واستمرت هذه العلوم وتناقلتها الأجيال بجهود يبذلها عدول الأمة، وفي كل فئة وفي كل زمن نجد من ينهض بهذه المهمة ليستحق الأجر وليزيل الإثم عن الأمة كافة .

بينت فيما سبق أن فرض الكفاية يتطلب أن تكون العلوم كلها موجودة في الأمة الإسلامية وأن يكون هناك توازن خفي يحقق الاهتمام بهذه العلوم، سواء كانت شرعية أو عربية أو عصرية دنيوية يحتاجها الناس في حياتهم ومعاشهم، وهذا التوازن لا يرى طبيعياً وإنما يوجد له ما يرجح كفته كلما اقتضى الأمر، هذا الترجيح الذي نتطلبه إنما هو التشجيع بشتى صوره سواء كان هذا التشجيع بالوعظ والإرشاد والتحبيب، أو كان ممن يلي أمر التعلم والتعليم، أو كان من أولياء الأمور، وهذا التشجيع الرسمي يحتاج إلى وقفة .

إن الخلفاء والحكام والسلاطين الذين ولاهم الله أمور الأمة في كل عصر وزمان كان لهم جانب في تشجيع العلم سواء كانوا علماء أو غير علماء، والحقيقة أن كثيراً منهم كانوا علماء وكانوا يبارون العلماء ويسابقونهم، هذا التشجيع الرسمي هو الذي يحقق التوازن ويضمن بقاء جذوة العلم بشتى أنواعه متقدة مستمرة .

ومن صور هذا التشجيع المكافآت الجزلة التي كان الحكام يقدمونها للمشتغلين في العلوم مهما كانت تلك العلوم وهذه المكافآت كان منها نوع ثابت بصورة عطاء من بيت المال يقيم أود هؤلاء ويفرغهم لحفظ العلوم وصونها وتداولها، وإذا كنا نسمع في بعض الأمم والشعوب المتمدنة الآن

جوانب من هذا التفرغ العلمي بحيث يعطى أناس كفايتهم دون جهد منظور يقدمونه وإنما توجد فيهم ملكات العلوم وخبرات الفنون بهدف أن تستمر هذه الخبرات وتبقى فإن هذا التفرغ للعلم و التهيئة المادية والنفسية للعلماء قد سبقت إليها امتنا أيام حضارتها وازدهارها، إذ كانت الأعطيات تحقق الكفاية وتفرغ البال، ولذلك كان الفقهاء والأئمة يعذرون من يتخلف من تلامذتهم إذا شغل بالكسب وطلب الرزق، ومن هنا نجد أن نفرا من هؤلاء الأئمة - كأبي حنيفة - كان يغدق على تلامذته ويوفر لهم أودهم حتى يتفرغوا لحمل العلم وأداء الأمانة .

وبالإضافة إلى تلك المكافآت المستمرة كان أولو الأمر يجزلون المكافآت للعلماء في المناسبات المختلفة، فإذا رأوا نبوغا أو رأوا براعة في التأليف من عالم من العلماء في جانب من الجوانب كان له جزاؤه وكان له تشجيعه .

و إلى جانب هذه المكافآت كانت هناك مشاركة وجدانية لأولياء الأمور في العلم وحلقاته وتداوله فقد كانت مجالس العلماء ومناظراتهم لا تنعقد إلا في مجالس أولياء الأمور، ولولا أن هذه المجالس تحظى بتشجيع وتوفير الجو العلمي المكين لتداول الآراء بحرية ونزاهة لما استمرت هذه المجالس ولتحولت إلى شغب ومشاحنات، وهذه المجالس نراها في أيامنا بصورة مواسم ثقافية هنا وهناك، وإلى جانب تلك المجالس كانت المسامرات، فكثير من الخلفاء كان يسهر الليالي الطوال إلى جانب عالم يطارحه في الأشعار والآداب أو في المسائل العلمية والفقهية .

وإلى جانب هذا وذاك كان التقدير العلمي في صور أخرى قد نستغربها حيث كان أولياء الأمور يزورون العلماء في بيوتهم، وكانت هذه الزيارات مشاركة وجدانية، وكانوا يزورون معاهد العلم، فصلاح الدين الأيوبي ذلك

الفتاح المعروف الذي كتب الله له أن يحرر أطر أرض بعد الحرمن من أيدي الصليبين يذكر المؤرخون أنه كان يزور العلماء في بيوتهم وكان يزور كمال الدين الشهرزوي ويقرأ عليه في مجلسه في بيته، ولا يخفى ما كان من تشجيع الحكام وأولياء الأمور للعلم فحديث البرامكة معروف والمأمون ومجالسه والخليفة الواثق والكمال الأيوبي والمنصور ابن أبي عامر الأندلسي .

لنستمع إلى لون طريف من ألوان التشجيع على العلم من الملك المعظم عيسى بن أيوب، هذا الملك كان عالما وكان يجيد أنواعا من الفنون العلمية وخصوصا اللغة العربية، وقد أعلن هذا الملك أن كل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري يقدم له مكافأة مئاة الدينار ، هذا التشجيع العلمي هو الذي كان وراء تلك الثورة العلمية التي قاومت عناصر الفناء، والتي وجدنا فيها سبلا من التراث العلمي الذي هو أوعية العلم والذي لو لم يكن هناك جهود فردية وجهود رسمية لحفظه وصيانتة لعدت عليه عوادي الزمن وقضت عليه فيما قضت من عمران ومبان وعهود ذهبت وولت ولكن بقيت ثقافتها وحضارتها وازدهارها العلمي الذي نقتطف من ثماره ، ونسأل الله أن تدوم هذه الأمانة تتناقلها الأجيال لأنها أمانة حفظ القرآن وبقائه واستمراره .

العلوم الشرعية كثيرة ومتنوعة ولكن من يريد أن يحصرها ويقلل اختصاصها وتعددتها يحاول أن يجعلها أو يجعل منها ثلاثة هي التفسير والحديث والفقه ، والحقيقة أنهم حينما ميزوا هذه العلوم وسلطوا عليها الأضواء لم يغبنوا علوماً أخرى يعرف لها المختصون حقها، وإنما أرادوا أن ينوهوا بالعلوم التي يستطيع أن يغرف منها الخاصة والعامة، والتي ينبغي أن تكون هي الثقافة الشعبية التي يتداولها الناس ، فالتفسير لكتاب الله عز وجل من خدمة كتاب الله، والحديث هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تفسر الكتاب وتبينه، والفقه هو ثمرة القرآن والحديث لمعرفة الحلال والحرام التي لا يستغني عنها مسلم، فإذا استغنى عن أن يتخصص ويتعمق فلا بد أن يأخذ منها بطرف وأن يلم بفرائضه العينية التي تتصل بأركان الإسلام وبما يحتاج إليه في اختصاصه ومجال عمله وحرفته .

إن هذه العلوم الثلاثة (التفسير والحديث والفقه) توجد في ظلها علوم أخرى، فالفقه يستتبع أصول الفقه، والحديث يستتبع مصطلح الحديث. ومصطلح الحديث وأصول الفقه هما معيار العلم في الإسلام، فمصطلح الحديث يضبط نقل العلوم وتواردها ومضيها في رحلة الزمن، فهو الذي يجعل العلوم تنقل بأمانة. أما أصول الفقه فهو الذي به نفهم هذه العلوم

وتستنبط دلالتها ويفهم مراميها ومضامينها، فهذان العلمان (مصطلح الحديث وأصول الفقه) هما معيار العلم .

وقبل هذا وذاك القرآن الكريم فإن تعليم و تعلم القرآن الكريم علم مستقل، بل إنه أول العلوم فهذه الأمة إنما انتقلت من الأمية إلى الثقافة والعلم بالقرآن الكريم، فالكل يعلم أن أول كلمة نزلت من السماء قول الله عز وجل " اقرأ " ، ومعنى كلمة " اقرأ " امح أميتك، لأن الأمي هو الذي لا يحسب ولا يكتب، والقراءة تتطلب مقروءاً، والمقروء هو المكتوب الذي يستطيع الإنسان أن يفهمه ويلفظه، فالقرآن الكريم هو الذي كان الجولة العظمى والحملة الكبرى لتحويل هذه الأمة من الأمية إلى الكتابة والقراءة .

وإذا رجعنا أدراجنا في التاريخ نجد أن أول ما عقدت مجالس العلم وبيوت التعليم كانت على هذا الذكر الحكيم، وأول ما نشأت المدارس ونشأ التعليم وحلقه إنما كان على هذا القرآن الكريم، فإنه كانت في المدينة بيوت تخصص من بيوت الأنصار لتدريس القرآن الكريم، وتدارس القرآن الكريم يستتبع بالضرورة تعلم القراءة والكتابة وقد سمو هذه البيوت المكتب أو الكتاب وهي الفكرة التاريخية التي أدركها الجيل إلى عهد قريب .

وأول من جمع الصبيان لتعلم القرآن وتعلم القراءة والكتابة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد جمعهم على عامر بن عبد الله الخزاعي الذي نستطيع وصفه بأنه أول معلم للقرآن والكتابة والقراءة ، وجعل له رزقا من بيت المال، وحدد له مواقيت للتعليم بأن يجلس للصبيان لتعليمهم من الصباح إلى الضحى ، ثم يدع لهم فرصة للراحة ويجتمع بهم ثانية من الظهر إلى العصر .

هذه أول مدرسة شهدتها تاريخ هذه الأمة وكانت مدرسة للقرآن كانت كتابا لتعليم القرآن الكريم وما يستتبعه من محو الأمية ويقول الواقدي^(١) مؤرخنا حال هذه المدرسة الأولى لمحو الأمية ولتعليم القرآن، يقول بأن هذا المعلم عامر بن عبد الله الخزاعي كان يعلم هؤلاء الصبيان طوال أيام الأسبوع باستثناء الجمعة، فلما سافر عمر بن الخطاب في رحلته المعروفة إلى بلاد الشام ليتسلم القدس حينما أبلأ أهلها أن يصلحوا على تسليمها ويسلموها إلا للخليفة نفسه، فلما رجع عمر بن الخطاب من رحلته هذه وكان قد قضى زمنا طويلا اشتاق الناس إليه، فخرج هؤلاء الناس للقاء عمر بن الخطاب من طوعهم ومن نفوسهم، وخرج معهم الصبيان المتعلمون ومعهم معلمهم هذا إلى مسافة بعيدة خارج المدينة ليتلقوا الخليفة الراشد، فلما التقوا بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه باتوا تلك الليلة في المكان الذي التقوا به فيه وقضوا ذلك اليوم، وكانت ليلة خميس، فلما رجعوا إلى المدينة أشفق عليهم الخليفة وقال لهم إنكم تعبتم في الخروج والرجوع وأمر ذلك المعلم أن يدع لهم يوم الخميس عطلة يستريحون فيها، ومن هنا نشأت تلك العطلة سواء كانت مستمرة طوال اليوم أو مقتطعة من جزء من اليوم .

هذه هي المدرسة الأولى التي أسسها المسلمون على أساس متين لتعليم القرآن وتدارسه وتحفيظه ونشره، وإن من الحقيقة التي لا بد أن نضعها نصب أعيننا أنه لا مقلع يغير التعليم اليومي المستمر للقرآن الكريم، فينبغي أن يكون تعليمنا وثقافتنا مدارها على هذا الكتاب الكريم .

(١) والواقدي إذا كان مضعفا عند علماء الحديث فإنه عمدة عند علماء التاريخ لأن التاريخ لا يتصل بالحلل والحرام والدين وإنما هو نقل الأخبار وإذا شدد علماء الحديث في نقل الحديث حرصا عن أن يتسرب إليه الشك فإنهم كانوا يتسامحون في رواية الأخبار .

وأريد أن أشير إلى حقيقة تاريخية أخرى قد يمر بها الكثير من الكرام ولا يتوقعون عندها ولا يعرفون سرها، وهي أن القرآن الكريم مجزأ تجزئة تساعد على حفظه وقراءته إلى ثلاثين جزءا، ولكن هذه الأجزاء مقسمة أيضا إلى أرباع وأثمان كل جزء مقسم إلى ثمانية أقسام لو أخذت هذه الأجزاء الثلاثون بتجزئتها الصغرى لوجدنا أنها تعد مائتين وأربعين قسما " ٢٤٠ " وهذه الأقسام المائتان والأربعون ما سر تجزئتها إلى هذا العدد لم تكن ثلاثمائة أو أربعمائة؟ إن من يدقق في هذه القضية يعلم أن هناك صلة شديدة بين هذا التحزيب والتقسيم للقرآن الكريم وبين الرغبة في قراءته يوميا وتحفظ أجزائه منه كل يوم حتى يمر الإنسان بنظره وطرفه وقلبه على هذا الكتاب الكريم كل عام على الأقل، فإذا أسقطنا الأيام التي كان يعطل فيها المعلمون والمتعلمون، وهي يومان من كل أسبوع لوجدنا أن مآل السنة على مائتين وأربعين يوما، وهذه المائتان والأربعون يوما ارتبط بها تجزئة القرآن وتقسيمه حتى يمر الإنسان على هذا الكتاب الكريم فلا يخلي يوما منه .

ومما يحزن النفوس أن تقول حال هذه الأمة إلى أن يقال فيها: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ^(١) . فتعليم القرآن أصبح أمرا عاديا ليس له الاهتمام الكبير الذي ينبغي له، وإن هذه القضية ينبغي أن تعالج بأعلى المستويات، وينبغي أن يكون هناك برنامج يوميا لكل متعلم بأن يكون له صبح من هذا الكتاب الكريم يفتح به يومه، فيحس فيه بالبركة وبالقوة والجزالة في الألفاظ التي يسمعها والمعرفة التي يكتسبها، وهكذا نعود عودا حميدا إلى مبدأ هذا التعليم الذي كان مداره ومحوره على القرآن الكريم .

(١) سورة الفرقان / ٣٠ .

بعد أن أمر الله عز وجل بالعلم وحض عليه رسوله صلى الله عليه وسلم كان لا بد أن تكون لهذا العلم ثمرة . ما هي ثمرة العلم والتعلم، هل هو العلم للعلم كما يقولون أم هو العلم للتبليغ والنشر والعمل به ؟ نستمع إلى تشبيه يقدمه لنا حجة الإسلام الغزالي ذلك الإمام الذي مر شوطا طويلا في مجالات التعليم والتعلم وكتب كتابات خاصة وعامة في التربية وأصول التعليم والتعلم كانت ولا تزال منهاجا لمن يطرق هذا الموضوع .

يشبه الإمام الغزالي العلم بالمال ، فيقول : إن من يقدم على جمع المال يمر بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الاستفادة، أي جمع المال وتحصيله .

والمرحلة الثانية : الادخار، أي إنه بعد أن يجمع هذا المال ينفق منه ما ينفق ويغطي تكاليف جمعه ثم يدخر ما يفيض عنده من مال أو ما يفيض من ربح .

والمرحلة الثالثة : الانتفاع به، فهو يعود به على نفسه وعياله ويستمتع بشمرات هذا المال .

وأما المرحلة الرابعة والأخيرة ، فهي : نفع الآخرين به وبذله وإعطائه وهذا هو الذي يبقى للإنسان بعد وفاته لأن كل ما يأخذه من هذا المال يفنى والذي يبقى هو ما ينفقه ويتصدق به كما أشار إلى ذلك الحديث المعروف .

ويوضح الغزالي حجة الإسلام تشبيه العلم بالمال في مراحل تلك فيقول:

إن العلم يمر بمرحلة أولى وهي مرحلة الطلب والتحصيل وتساؤل الإنسان عما يجمله وجريه في كسب هذا العلم هذه هي المرحلة الأولى التي لا بد منها ، فالعلم بالتعلم والعلم كالرزق لا يتزل من السماء وإنما يصعد إليه الإنسان فيمد إليه أكفه ويفتح له أذنه ويصغي إليه بقلبه .

هذه المرحلة الأولى تتلوها مرحلة ثانية هي حصول هذا العلم وإدراك الإنسان لتلك المعلومات والمقولات .

أما المرحلة الثالثة فهي التبصر ، ومعنى التبصر أن يستفيد من هذا العلم فيقوم به اعوجاج نفسه ويتخلق بما يستفيد منه .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي التبصير وهي أن ينفع الآخرين بذلك العلم . وفي هذه المراحل الأربع تعتبر المرحلة الأخيرة هي ثمرة العلم ، لأن ثمرة العلم نشره ، وأما من اختزن العلم فغن به عن مستحقه فإنه يسأل عن كتمه ، ويلجم يوم القيامة بلجام من نار ، وعن هذا العلم المكتوم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^(١) " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " ، ذلك أنه قطع الطريق بين انتقال هذا العلم إلى المتعلمين ، فإن الله عز وجل يعامله بجزاء من جنس هذا العمل : يغلق فاه ولكن بلجام من نار تكوى بها شفتاه وتتألم بها قواه التي ضن بها عن نشر هذا العلم ، لأن الله عز وجل جعل الإنسان ناطقا ومبينا ليبين هذا العلم ، فإذا خالف تلك القوة التي وضعها الله فيه فإنه يجازى بجزاء مشابه لما أقدم عليه من عمل .

(١) رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن .

قيل للمهلب : ما لنا نراك قد أدركت ما لم يدرك غيرك مع أن غيرك يعلم مثلما تعلم ؟ ماذا قال المهلب في جواب أولئك الذين سألوه فقالوا له : إننا نعلم كثيرين قد حملوا من العلم مثلما حملت ولكن إدراكهم واستفادتهم في هذا العلم ليست مثلما عندك، فقال لهم المهلب : " ذاك علم حمل وهذا علم استعمل " . والعلم الذي يحمل لا يفيد وإنما يزيد نسخا من كتب ذلك العلم في البلاد التي يوجد فيها ذلك الإنسان، ولكن العلم المستعمل المستفاد منه بالتبصر والتبصير هو كل العلم .

ويشير الإمام الغزالي أيضا إلى أن شرف العلم يتبين من أحد أمرين : الأمر الأول ثمرته ، والأمر الثاني وثاقة دلائله وقوة أصوله، فإذا تعارض هذان الأمران كان الترجيح لشرف العلم من حيث ثمرته وفائدته إذ ثمرة العلم نشره .

وجزاء هذا النشر للعلم أن يحظى الإنسان بجملة من الخير والنفع، وقد أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوامع كلمه يقول صلى الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينتقص ذلك من أجورهم شيئا " . فمن يدعو إلى هدى يث علماء في الناس يتسبب في حصول الأجر المستمر الذي يحصل بما نشره من علم، والله عز وجل كريم لا ينقص من أجور من استفاد منه شيئا وإن كان لو نقص لكان ذلك عدلا، لأن هؤلاء استفادوا من ذلك الإنسان ولكن كرم الله عز وجل يجعل أجره وافيا وأجرهم كاملا .

ويقول صلى الله عليه وسلم : داعيا بالنضارة واستمرار الحياة الكريمة واستمرار الشباب والقوة والعافية لمن يبلغ العلم وينشره، يقول ^(١) : " نضر

(١) رواه البخاري ومسلم .

الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع " .
فسماع العلم ونشره مدعاة لحصول ذلك الثواب الكبير الذي أشار إليه النبي
صلى الله عليه وسلم، وهو مدعاة لتحقيق تلك الدعوة الكريمة المستجابة التي
دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مدى الأزمان لكل فرد ينهض
بتبليغ العلم ويكون في جملة حملته .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حملة العلم بأنهم عدول
الأمة، أي الناس المعدلون الموصوفون بالبروة والشهامة، لأنهم انبروا إلى أداء
الأمانة بحمل هذا العلم من كل خلف، ففي كل زمن حملة العلم هم
العدول، وهم الشهداء على حمل هذه الأمانة وأدائها، نسأل الله عز وجل أن
يجعلنا من الذين يحصلون على ثمرة العلم وعلى قطافه، ويستكملون مراحلهم
من طلب للعلم، وحصول للعلم، وتبصر به، وتبصير به للناس، لنكون
مستجيبين لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر بقوله : " بلغوا عني
ولو آية " (١) .

(١) حديث صحيح رواه البخاري .

إن ثمرة العلم هي تعليمه ونشره والانتفاع منه والنفع به، و العلم لا يكون إلا بين عالم ومتعلم، وإن مما بذل العلماء من نصح أن توسعوا في هذا المجال فبينوا أخلاق المعلم والمتعلم وآداب التعليم، وكتبوا في ذلك الكتابات الطويلة والكثيرة، ومن المؤسف أن هذا الجانب قد أصبح مغمورا في هذه الأيام بحجة أنه يفترض في الإنسان أن يعلمه، ومع هذا يقال للإنسان احترم المعلم وأكرم المعلم، ويقال أيضا للمعلم أشفق على المتعلم وأعطه ما يتطلبه الأمر، ولكن هذا الإجمال لا يستغني به، ولذلك نجد أن العلماء وضعوا كتباً متخصصة في هذا المجال، وخصصوا له أجزاء من علم مصطلح الحديث شرحوا فيها آداب حمل العلم وأدائه .

و من المشهور ما كتبه حجة الإسلام الغزالي في هذا الباب، فقد أوسع القول في كتابه إحياء علوم الدين عن أخلاق العالم والمتعلم، وكتب رسالة سماها أيها الولد وجهها إلى طالب العلم، فهو يعتبر أن طالب العلم إنما هو ولد للمعلم، ولد روعي له، وكتب في ذلك فقهاء وعلماء ومحدثون فتوسعوا في هذا الباب . وهذا الباب ينبغي أن يؤخذ بالاعتبار لأن هذا الطالب بعد أن وجد أن التعليم أصبح أمراً تقليدياً قد تحفى عليه الواجبات عليه و الحقوق التي للمعلم، ومن المؤسف أن المعلم نفسه لا يستطيع أن يبين هذه الحقوق فهل يقول المعلم للمتعلمين تأدبوا معي واعتبروا حقوقي

وراعوها ؟ أو يقول المتعلم للمعلم طالبا منه أن يرعاه أو يشفق عليه ولذلك يعتبر هذا واجب الآباء وهو أيضا واجب المصلحين في كل وقت وفي كل مناسبة .

ولعل التوسع في أخلاق المعلم والمتعلم لا يمكن في هذا المقام، ولكن الإشارة قد تكون فيها كفاية، إن من أوجب واجبات المعلم الشفقة على متعلمي العلم منه وأسوته في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم " وقوله هذا موجه للصحابة، والرسول صلى الله عليه وسلم معلم الناس الخير، وهو المعلم الأول لهذه الأمة، وهو المعلم الدائم لها، فهو يعتبر أن مهمة التعليم إنما هي رعاية والدية ، وهذه الرعاية الوالدية كما قلت إنما هي ولادة روحية، والتشبيه بين الولد والمتعلم قدسم، ووجه الشبه فيه ظاهر، فالوالد هو سبب وجود الإنسان في هذه الحياة الفانية، والمعلم والمربي أيضا هو سبب وجوده معنويا، وهو أيضا سبب بقاءه لأن تعليمه يحفظه من الهلاك فالوالد تسبب في وجوده والمعلم تسبب في بقاءه واستمراره، والشفقة من المعلم تقتضي أن يكون رحيفا أن يكون لنا أن يكون راعيا لهذا الصغير الذي يتعلم منه، أو الكبير الذي يجلس بين يديه، فالتشبيه في هذا فيه غناء، وهو من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم .

كما أن من واجبات المعلم أن يكون هناك جانب للتطوع والتبرع، وقديما كان العلماء يحضون على تعليم العلم وإغناء الناس وإرشادهم بدون أجر حسبة، ليكون لهم ذلك الثواب الجليل، وهو ثواب من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ولكن لا يصلح أمر الناس إلا بترتيب ما يجعل هؤلاء المعلمين كفايتهم ليفرغ قلبهم وتستعد نفوسهم، فهل هذا الذي يخصص للمعلم يعتبر كافيا له ؟ أو هل يكون هذا كل جزائه؟

لا شك أن المعلم مدعو ليعطي أكثر مما أخذ، ومهما أخذ فإن عطاءه يكون أجل وأعظم ولذلك يبقى عنصر التبرع والتطوع والاحتساب قائما، فإنه يبدل دون أن ينظر إلى ما يكون هناك من جزاء ومن مقابل .

وإن من واجبات المعلم أيضا النصح وهذا الواجب واجب إسلامي عام يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة " قلنا : " لمن يا رسول الله " قال : " لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم . " فالنصح واجب إسلامي ولكنه بالنسبة للمعلم واجب، ومعنى النصح أن يكون محققا لما يقدمه من معلومات، وأن يكون جريئا في التراجع إذا ظهر له خطؤه، وأن يكون مخلصا فيما يقدمه من علم ومعرفة .

ومن أوجب واجبات المعلم التلطف والرفق بمن يعلمه، ولهذا التلطف وسيلة معروفة استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك هي التعريض وتفادي التصريح، فإذا وجد المعلم في المتعلم عيبا أو قصورا فإنه لا يجابه بذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يواجه أحدا بما يكره، وكان إذا رابه أمر من إنسان وعرف ذلك الإنسان لا يصرح باسمه بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. والتعريض بالأمر فيه مدعاة لهذا الإنسان بالتراجع في ستر . أما التصريح فإنه كثيرا ما يكون إغراء بالإصرار والبقاء على خطئه وانحرافه .

ثم إن من أخلاق المعلم عدم الغضب من شأن علم آخر لا يتولى تعليمه، وهذا خطأ يقع فيه كثير من المربين ويشكو منه المتعلمون أنفسهم، فإذا دخل على المتعلم مدرس في مادة فقد يعطي كل الاهتمام لتلك المادة وقد يصدر منه شيء من المساس بمادة أخرى، وهذا إذا صح أن يعامل فإنه يعامل بالمثل القائل : " المرء عدو ما جهل " . يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا

بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ۝ (١) . فالمرء عدو ما جهل ، وهذا المعلم إذا أدرك شيئا فقد فاتته أشياء، وإن من حق العلم عليه أن لا يغض من شأن علم آخر، بل يدع الفرصة للمعلمين الآخرين ليجدوا الطريق موطأة أمامهم ولا يجد في نفوس هؤلاء الطلاب وحشة من علم يلقنونه إياه .

ومن أخلاق المعلم أيضا الحكمة ومراعاة التناسب فلا يعطي المتعلم إلا المقدار الذي يدركه ويتقنه، فإن من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكلم الناس بما يفهمون فقد جاء في الأثر : (علموا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .

أوردت فيما مضى أخلاقيات المعلم وواجباته ولكن ما هي أخلاقيات المتعلم وواجباته ؟

إن واجبات المتعلم أكثر وأشد من واجبات المعلم، فالمعلم كما قلت متبرع حتى ولو تقاضى أجرا كبيرا فإنه متبرع لأنه يعطي أكثر مما أخذ، والمتعلم هو المستفيد وهو الآخذ، وهو الذي يجب عليه لين الجانب وخفض جناح الذل لمعلمه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل للمسلم الملق إلا في تعلم العلم " أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإن أخلاق المتعلم كثيرة ولكن الإشارة إلى بعض منها تجعل هؤلاء المتعلمين يغرون معلمهم بأن يعطوهم وأن يستفرغوا جهدهم في نقل هذه الأمانة وحمل هذه العلوم إليهم .

إن أول ما يطلب من المتعلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق ليست من أخلاق المتعلم وحده ولكنها أوجب في هذا المجال، لأن حسن خلق المتعلم يغري المعلم ببذل الجهد في تعليمه، فكيف تكون أخلاق المتعلم حسنة وكريمة ؟

إن أخلاق المتعلم كثيرة ولكن أهم أمر فيها حسن السؤال والتلطف في أخذ العلم والتواضع في التلقي، ولذلك يقول أحد الحكماء : " لا تسئل رياء ولا تترك السؤال حياء " . فالسؤال هو مفتاح العلم وهو الوسيلة التي

يتوصل بها إلى تلقيه وإن أحدث طرق التعليم التي نعيشها تقوم على المناقشة والمحاورة بين المعلم والمتعلم، فكما يسأل المعلم يسأل المتعلم، فالسؤال رياء أن يصطنع المتعلم الجهل ويخرج معلمه وهذا ينطبق عليه ما ينطبق على الرياء سواء بسواء، وأما ترك السؤال فإنه حجاب بين المتعلم وبين أخذ العلم، ولذلك يقول الإمام مجاهد بن جبر: " لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر " المستحي يخشى من أن يقال عنه أنه لا يعلم فيبقى جاهلا إلى الأبد، أما الذي يجرو ويَسأل فإنه يتحمل خجلا قليلا ولكنه يصل إلى بغيته، ولذلك مدح رسول الله نساء الأنصار فقال: " نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين ".

أما الخلق الآخر الذي يجب على المتعلم فهو تقليل شواغله وتفرغ نفسه للعلم، يقول الخليل بن أحمد: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فإنه في إعطائه إياك بعضه على خطر عظيم " وهذه حكمة فيها دقة وعمق فالعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا كنت موزع الفكر مشتت الخاطر، لا تصفو نفسك وجوارحك لهذا العلم بكليتك فإنك تصل إلى بعضك، ثم إنك إذا أعطيته كلك لتحصل على هذا البعض فإن حصولك على هذا البعض ليس على طرف الثمام، وإنما هو أمر شاق دونه جهد و تحمل مصاعب .

من أخلاق المتعلم أيضا التواضع وإلقاء السمع، فالإصغاء هو وسيلة التعلم، ولذلك يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ^(١) . فالذي له قلب ذلك الإنسان الذي يتفهم حقائق العلم، وتفهم حقائق العلم لا يكون إلا بالتواضع الذي يمكن الإنسان من السؤال والتثبت إذا لم يفهم من المرة الأولى، فهذا هو

(١) سورة ق / ٣٧ .

الذي له قلب وفهم في الأمر أما من ألقى السمع وهو شهيد فهو الذي يصغي ويعطي كله لهذا العلم .

ثم إن من أخلاق المتعلم أيضا أن يصبر ويداوم على تعلم العلم فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل، فإذا انتقل الإنسان من علم إلى علم قبل أن يتقن ذلك العلم فإنه لا يستفيد وإنما يجمع أمورا ظنية لم تبلغ إلى درجة اليقين .

ومن أخلاق المتعلم إخلاص القصد وأن يكون غرضه من تعلم العلم وجهه الله عز وجل، فإن هذا العلم هو كرم وفضل من الله عز وجل، وهو نور يقذفه في قلوب من يحب، فإذا كان الإنسان قد حمل في نفسه أغراضا دنيوية، وتعلم هذا العلم ليجادل به العلماء ويماري به السفهاء ويجمع إليه وجوه الناس فإن الله عز وجل يحرمه من بركة هذا العلم .

ذلك أن أولى وسائل جمع العلم واستيعابه هي الحفظ، والحفظ بركة من الله عز وجل فالحفظ وقوة الذاكرة أمر لا تسبب فيه للإنسان إذ لا يستطيع الإنسان أن يجلب تلك القوة وإنما هي منحة من الله عز وجل .

وهذه المنحة تزداد وتقوى بتقوى الله عز وجل ولعل العالمين والمتعلمين القدامى كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك المبدأ فإن تقوى الله عز وجل وإخلاص القصد وابتغاء الأجر والاحتساب كل تلك الغايات هي التي تجعل الإنسان قويا على حمل العلم قويا على نشره، ولذلك كانوا يرددون هذين البيتين ويحفظونهما للمتعلمين :

شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

